

من المعروف أننا نعيش في ظل ثورات الربيع العربي، وخاصة في مصر هذه الأيام وهذا الكتاب من وحي هذه الثورات، وهو بعنوان الثورات الشعبية في مصر الإسلامية للكاتب د/ حسين نصار، الذي تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٧م

الثورات الشعبية في مصر الإسلامية

HASSAD EL FIKR • العدد (243) شعبان 1433 هـ • يوليو 2012 م

وحصل على الدكتوراه، في جامعة القاهرة عام ١٩٥٣م، وحقق الكاتب نصار عدة دواوين من الشعر العربي وفي مجال النثر حقق منها "النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة" لعلي ابن موسي بن سعيد المغربي.

وتعني كلمة تحقيق الحصول على النسخ المخطوطة واللازمة لعملية التحقيق.

قسم المؤلف الكتاب إلى بابين:

- أولهما الثورات التي ضحى فيها بالدماء.
- ثانيهما الثورات البيضاء التي لجأ فيها المصريون إلى وسائل أخرى حفظت لهم دماءهم.

ينقسم الباب الأول إلى ستة فصول:

- الفصل الأول: ثورات العلويين.
- الفصل الثاني: ثورات الأمويين.
- الفصل الثالث: ثورات الخوارج.
- الفصل الرابع: الثورات الاقتصادية.
- الفصل الخامس: الثورات القبطية.
- الفصل السادس: الثورات المجهولة الأسباب.

أما الباب الثاني فينقسم إلى فصلين:

- الفصل الأول: الامتناع عن التعاون.
- الفصل الثاني: المقاومة القولية.





● تأليف: د. حسين نصار
● الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م
● عرض: محمد منتصر ● عدد الصفحات: ١١٢ صفحة

وفيما يلي نعرض لأهم الأفكار والآراء الواردة في هذه الفصول:

الفصل الأول: ثورة العلويين

إن بداية الثورة كانت على يد رجل يهودي، يدعى عبد الله بن سبأ من أهل صنعاء أسلم زمان خليفة المسلمين عثمان بن عفان، ثم تنقل في بلدان المسلمين، يحاول إضلالهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة فالشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر، فقال لهم: "إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصيّ، وكان عليّ وصيّ محمد".

ثم قال: "محمد خاتم الأنبياء، وعليّ خاتم الأوصياء"، ثم قال لهم بعد ذلك: "إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله (ﷺ)، فانهضوا على الخليفة عثمان بن عفان، فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر". فبث عبد الله بن سبأ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ووصل ذلك الأمر إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان، فاستدعى ولاة الأمصار المختلفة، لاستشارتهم؛ فجهز جيشًا بقيادة عبد الله بن سعد، فثار على هذا الجيش محمد بن أبي حذيفة، وأخرجه من الفسطاط، ثم استولى على إمارة مصر، ودعا محمد بن أبي حذيفة إلى خلع عثمان، وحرّض عليه بكل ما استطاع.

أوضح الكاتب أن الدول الإسلامية انقسمت في ذلك الوقت إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول موالي لطلحة بن عبيد الله، وهم أهل البصرة، والقسم الثاني أهل الكوفة، وموالين للزبير بن العوام، والقسم الثالث والأخير موالي لعلي بن أبي طالب، وهم أهل مصر. كان المصريون هم الذين أحرقوا باب دور عثمان بن عفان، واقتحموها، وأسهموا في قتله، وقتل بعض المدافعين عنه، ويبدو أن الأحوال لم تهدأ بمصر بل انقسمت إلى فئتين: فئة علوية آل إليها الحكم، وعلى رأسها محمد بن أبي حذيفة؛ وفئة عثمانية تطالب بالثأر لدم عثمان وعلى رأسها معاوية بن حديج. وابتعد العثمانيون (نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان) إلى الصعيد، بمنأى عن والي مصر محمد بن أبي حذيفة، فأرسل إليهم جيشًا، فهُزم الوالي، وانتقل العثمانيون من الصعيد إلى برقة، ثم دخلوا مصر من الإسكندرية. أرسل العثمانيون معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، على رأس جيش ليدخلا مصر، وينتزعاها من محمد بن أبي حذيفة، فهزمه معاوية، وقبض عليه، وقتله. وعندما تولى المنتصر الخلافة (٢٤٧هـ) أرسل كتابًا إلى يزيد التركي، الا تسند قبالة أية ضيعة إلى علوي، ولا يؤذن له بركوب فرس، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها؛ وإن كانت بيته، وكان من أثر هذا أن ثار محمد بن علي بن الحسين، والتف حوله جماعة من المصريين، وبايعوه، ولكن أمره لم يتم، إذ استطاع يزيد التركي (والي مصر) أن يهزمه، ويقبض عليه.

أوضح المؤلف - أخيرًا - جهود العلويين في مصر، باستيلاء الفاطميين عليها وانتزاعها من الخلافة العباسية، وإقامة خلافة شيعية بها، وصلت إلى أعلى مراتب الرقي والتحضر.

الفصل الثاني: ثورة الأمويين

يبدو أن العلويين في أوج قوتهم لم يسيطروا على مصر سيطرة كاملة، ويوحدوها تحت راية علي بن أبي طالب، إذ وجدت بإزائهم جماعة قوية كبيرة العدد، لا ترضى الخروج على الخليفة عثمان بن عفان، أو الدعوة إلى إحلال عليّ بن أبي طالب محله، ولم ترض هذه الجماعة عن مقتل عثمان، ولا عن الانطواء تحت إمرة من اعتبرتهم قتلته، فآثرت الابتعاد عن عاصمة البلاد، وعُرفت هذه الجماعة بالعثمانيين لانتسابهم إلى الخليفة، عثمان بن عفان.

وعندما قُتل عثمان، كانوا أول من بايع على الطلب بدمه، والثأر له: وكثر أنصار الحزب الأموي، بمرور الوقت، إذ انضم إلى هؤلاء

HASSAD EL FIKR • العدد (243) شعبان 1433 هـ • يوليو 2012 م

الأمويين بالهوى، أمويون بالنسب من أبناء الأمويين، الذين وُلوا إمرة مصر، وهم أبناء عبد العزيز بن مروان، الذين تناسلوا في مصر، وتكاثروا وعندما سيطر العباسيون على الأمور في مصر، بعد مقتل مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، قتلوا كثيرًا من الأمويين في مصر، فضعفت شوكة الأمويين كثيرًا، حتى رأيناهم ينضمون إلى أعدائهم العلويين لاتفاق مصالحهم ضد العباسيين.

لعل من فضلة القول أن الأمويين كانوا أقوياء كثيري العدد، واشتركوا في ثورات دامية، في مطلع الدولتين الأموية والعباسية، وكانوا في الثورات الأولى يثارون لدم عثمان بن عفان، ويمهدون لإقامة خلافة أموية، أما الثورات الأخيرة، فكانوا يثارون لخلافتهم المنهارة، ومحاولة تقويض دعائم الخلافة العباسية القائمة، وإقامة خلافة أموية مصرية.

الفصل الثالث: ثورات الخوارج

أوضح الكاتب د/ حسين نصار أن الفتنة الكبرى، التي عاصرت مقتل عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين، كانت سببًا في ظهور حزب ثالث في المشرق، بعد الأمويين والعلويين، وهو أعنف حزب إسلامي ألا وهو "حزب الخوارج"، فقد دأب الخوارج، طوال العهد الأموي وشطرًا من العباسي على القيام بالثورات الجامحة المدمِّرة، والتي استماتوا في القتال فيها، وكادوا في بعض الأحيان يذهبون بالدولة الأموية.

وغني عن القول: إن مصر لم تكن بمنعزل عن العالم العربي والإسلامي، بل ظهرت فيها جماعات تدين بآراء الخوارج، وتعتنق تعاليمهم، وأول ما نسمع بهم في مصر هي فتنة عبد الله ابن الزبير، الذي قام بثورته التي اعتمد فيها، بعض الوقت، على تأييد الخوارج، حتى دخلت مجموعة كبيرة منهم مصر، لضمها إلى سيطرة ابن الزبير، وكان ذلك أول عهد المصريين بنفوذ الخوارج؛ فما لبث أن قضى الأمويون على ثورة

عندما سيطر العباسيون على زمام الأمور في مصر قتلوا كثيراً من الأمويين فضعفت شوكتهم وانضموا إلى أعدائهم العلويين لاتفاق مصالحهم ضد العباسيين



الزبيريين والخوارج بمصر، وتم تنصيب عبد العزيز بن مروان واليًا عليها، واستطاع أن يوطد دعائم الحزب الأموي، وأن يجتث بذور الخوارج، فاضطروا إلى الانزواء في البقاع المصرية النائية كالواحات، حيث يبدو أنهم عاشوا حياة مستقلة عن الحكم الأموي، ودون أن يسمع أحد لهم أخبارًا، وأوضح المؤلف أنه كانت هناك صلة وطيدة بين خوارج مصر واليمن خاصة، ومن المعروف أن المصريين شاركوا المشارقة (أي الشرق العربي والإسلامي) في نشاطهم الحزبي، وأن هذا النشاط بدأ في مصر معاصرًا لبدئه في المشرق ولكن حزبين اثنين كانا القويين، هما الحزب العلوي والحزب الأموي، أما الحزب الخارجي، أي "الخوارج" فقد بسط نفوذه على البقاع المصرية النائية، واستقل بها، ويعرفنا ذلك أن مصر لم تنعزل عن النشاط السياسي في غيرها من بلاد المشرق وأن الأحداث الكبرى التي تقع بهذه الأقطار كانت تجد صداها سريعًا في مصر.

الفصل الرابع: الثورات الاقتصادية

من المعروف أن المصريين كانوا على اتصال بالمشارقة، وقد استجابوا لما قاموا به من أحداث، وكان لكل ما يقع بالمشرق صداه في مصر؛ فما إن يظهر حزب خارج مصر، حتى يظهر مثيل له في داخلها، وما إن تهب ثورة كبيرة في العراق، أو الحجاز أو الشام، حتى يكون لها وقعها وآثارها في حياة المصريين، فحياة المصريين لم تكن

منفصلة عن حياة المسلمين في الأمصار الإسلامية الأخرى.

وأوضح المؤلف أن لهذه الثورات العديد من الأسباب، فهناك من يثور من أجل الحصول على قوة مصر، التي أغرته، والسيطرة عليها، وكذلك غناها؛ وهناك ثورات اقتصادية، ترجع لأسباب اقتصادية أو المغالاة في جمع الخراج؛ وفي عام ١٦٧هـ ولي مصر موسى بن مصعب الخثعمي فتشدد في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان عليه أولاً، وجعل خراجًا على أهل الأسواق، وعلى الدواب، ولقي الناس منه عنتًا وشدة، وارتشى في الأحكام فكرهه الجند، وشغبوا عليه ونشبت الحرب، فقُتل في شوال ١٦٨هـ، أي ظل واليًا لمصر، لمدة عام فقط.

ويبدو أن مصر بقيت هادئة، طوال العصر الأموي، فلم تعرف الاضطرابات، ولا الثورات الاقتصادية، ولكن ما إن أظلها العهد العباسي، حتى كثرت الثورات، وتعددت وظهر خطر أثرها، فلم يكن يمر عام، أو عامان حتى تقوم ثورة سببها زيادة الخراج، أو منع العطاء، أو التحايل في استخراج أموال الأهالي، أو فرض ضرائب جديدة، ولم تسترح مصر من هذا اللون من الثورات إلا في عهود الاستقلال، تحت حكم الطولونيين، ثم الإخشيديين.

الفصل الخامس: الثورات القبطية

اشتهر بين دارسي التاريخ المصري أن المصريين كانوا يكرهون الرومان البيزنطيين، وانهم أو كثير منهم رحب بالفتح الإسلامي، أو ارتاح له، فقد كان البيزنطيون من أتباع المذهب الملكاني من المذاهب المسيحية، وكان المصريون من اتباع المذهب اليعقوبي؛ وأراد البيزنطيون أن يفرضوا مذهبهم على رعاياهم جميعًا، على حين أصر المصريون على مذهبهم، وأبوا التحول عنه، مهما لاقوا من وجوه الإغراء، أو صنوف التعذيب.

ورضي أقباط مصر عن الحكم الجديد، وهو الإسلام وخاصة أن المسلمين لم يتدخلوا في الأمور الدينية للقبط، وبقي هذا الرضا خلال القرن الهجري الأول كله، ولكن ما إن بدأ القرن الثاني، حتى بدأت سلسلة متصلة من الثورات التي قام بها الأقباط وحدهم، أحيانًا، واشترك معهم المسلمون في بعضها الآخر، وأكثر هذه الثورات كان بسبب الخراج، لا بسبب الشعور الوطني، أو الديني ففي عام "١٠٧هـ" أراد عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر، أن يتقرب إلى الخليفة، هشام بن عبد الملك، فكتب إليه أن أرض مصر تحتمل الزيادة في الخراج، وزاد، فعلاً على كل قيراط دينارًا، فثار القبط، وقتل منهم بشر كثير، وكان ذلك أول انتقاض للقبط في مصر.

وأوضح المؤلف أن أحوال القبط هدأت مدة طويلة، إلى عام ٢١٦هـ حيث قامت الثورة الكبيرة في مصر، في القرن الثالث الهجري، فثار أهل الوجه البحري جميعًا: مسلمون وأقباط في جمادى الأولى، وأعلنوا العصيان، وطردوا العمال، وحُشد المصريون، وجمعوا، فكثر عددهم وساروا لمقاتلة أميرهم "عيسى بن منصور".

فتجهز عيسى، وجمع العساكر والجند، ثم هابهم وضعف عن لقائهم، وتقهقر بمن معه، فازداد المصريون حماسة، وتقدموا إلى الفسطاط، وأخرجوا عيسى منها، وطردوه هو وصاحب الخراج، على أقبح وجه، واختتم الكاتب الفصل الخامس بمقولة المؤرخ الفرنسي، "ويت" (wiet): إن هذه الثورات فتن وانتقادات، أكثر منها ثورات حقة، ولم تجد تنظيمًا كاملاً لنجاحها.

الفصل السادس: الثورات المجهولة الأسباب

كانت هناك ثورات أخرى، اندلعت بمصر، لم يذكر أسبابها، ويغلب على الظن أن الدوافع التي جعلت المصريين يضطلعون بها كانت اقتصادية. قال صاحب النجوم الزاهرة عن سالم بن سوادة التميمي، الذي ولي مصر، عام ١٦٤هـ: "وفي أيامه كانت حروب كثيرة بمصر وبلاد المغرب"، وقال عنه مسلمة بن يحيى الذي ولي مصر

(١٧٢هـ) " وكانت أيامه، مع قصرها، كثيرة الفتن" وقال عن عبيد الله بن المهدي، الذي وليها بين سنتي ١٨٠، ١٨١ هـ: "فلم تطل مدته على مصر"، ووقع له بها أمور، حتى صرف عنها".

ويبدو أن الثورات المجهولة الأسباب ترتبت على ظروف اقتصادية، أو ظلم الحكام والولاة، أو ارتفاع الخراج، أو زيادة الفقر.

الباب الثاني: المقاومة البيضاء

الفصل الأول: الامتناع عن التعاون

من المعروف أن المقاومة البيضاء لم تصطبغ بالعنف الذي اصطبغت به المقاومة الحمراء، وإنما آثرت الهدوء مع الإصرار على الصخب مع الجموح، وقد استخدم المصريون الوانًا متعددة من هذه المقاومة البيضاء، وأول هذه الألوان، وصفه المؤرخون بالامتناع، وقد تجلى في عدة مواقف وبرز فيه كثير من الصور، كان منها الهادئ جدًا، ومنها ما عنف قليلاً، ومنها ما أدى إلى القتال؛ فحكى المؤرخون مواقف استقبل فيها المصريون الولاة، الذين نصبهم الخلفاء على حكم مصر، استقبالاً فاترًا، ولم يقبلوهم ولا اعترفوا بهم، فعلوا ذلك مع الولاة العلويين، والذين ثاروا على عثمان بن عفان، وطردوا واليه، وأقاموا انفسهم ولاة، باسم علي بن أبي طالب.

ولّى معاوية بن أبي سفيان ابن أخته، عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي، على مصر، وكان واليًا على الكوفة، فطرده أهلها، لسوء سيرته فاستقبله معاوية بن حديج، على مرحلتين، وقال له: "ارجع إلى خالك، فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة" فرجع معاوية، ولم يدخل مصر، (أراد هشام بن عبد الملك أن يوحد المكاييل في خلافته، فبعث "مديا" إلى مصر، وأمر أن يتعامل المصريون به، فاتى رجل من المصريين، اسمه عبد الرحمن بن حيويل، واخذه، ثم ضرب به حجرًا، فكسره وقال عبد الرحمن: "إن لنا ويبه، وإردبًا قد عرفناهما ولسنا نحتاج إلى هذا".

لم تنعزل مصر خلال تاريخها عن النشاط السياسي في بلاد الشرق الإسلامي، بل كانت الأحداث الكبرى التي تقع بهذه البلاد تجد صداها سريعًا في مصر



ويبدو أن المصريين قاوموا ما كرهوه، ومن لم يرضوا عنه، مقاومة إيجابية، بالقوة، ومقاومة سلبية بالامتناع عن التعاون معهم.

الفصل الثاني: المقاومة القولية

والمقاومة القولية هي التي تعتمد على ما نسميه "المقاومة اللسانية"، أي باللسان والقول، وتنقسم هذه المقاومة إلى شعر ونثر، ونستطيع أن نرى عناصر مقاومة المصريين الشعرية في اغراض الشعر، ولكنها تظهر جلية في الهجاء، والرثاء، والفخر، والاستنفار؛ وأول أمثلة للهجاء، حين ولي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فغلت الأسعار وتشاءم به المصريون، وزعموا أنه ارتشى؛ وخرج عبد الله من مصر إلى الشام، وافدًا على أخيه الوليد، فقال الشاعر المصري زرعة بن سعد الله بن أبي زمزمة:

إذا سار عبد الله من مصر خارجًا
فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال واف مغربل
فما سار حتى سار والمد فالج

استخدم المصريون في مقاومتهم القولية سلاحًا آخر، لا يقل عن قوة الشعر، وهو ذلك السلاح الذي اشتهر به أهل مصر قديمًا وحديثًا، وكاد يكون علمًا عليهم، وهو الفكاهة والسخرية.

عندما ولى عبد الله بن عبد الملك مصر، في سنة ٨٦هـ، فغلت الأسعار وتشاءم به أهل مصر، واكثروا من الإشاعات حوله، وزعموا أنه ارتشى ووسموه بلقب يسخرون منه فيه، هو "المكيس"

وعلى الرغم من التحريف الذي أصاب هذا اللقب في كتب التاريخ، فإن الصلة واضحة بينه وبين المكوس والضرائب، ولعل المصريين أرادوا بهذا اللقب أن يلقبوا هذا الوالي بجابي المكوس، أو الرشاوي.

لم تترك مصر من قبل الولاة سالمة، بل جعلوا شغلهم الشاغل جمع الأموال والخراج، وجعل كل هذه الأموال في بطونهم.

ومن المعروف أن ألوان المقاومة التي عرفها المشارقة عرفها المصريون أيضًا، وأن أسباب المقاومة التي بزغت في المشرق، بزغت في مصر، أيضًا فالتاريخ المصري الإسلامي جزء من التاريخ العربي العام لا ينفصل عنه، ولا يتميز عنه بعدت مصر أو قربت عن حاضرة الخلافة، فمصر لم ولن تنعزل عن بقية أقطار العروبة أبدًا.

ملاحظات نقدية

مما يؤخذ على الكاتب عنوان الكتاب نفسه، وهو الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، فلماذا كان هذا العنوان من اختيار الكاتب، فلماذا هذا الاسم تحديدًا؟ وهل هناك ثورات شعبية، وأخرى غير شعبية؟ يبدو من ذكاء الكاتب ما طرحه في المقدمة التي كتبها، ومنها: "وقد أثرت قلة المراجع في القدرة على التعرف الكامل على جميع الأحداث التي وقعت في مصر، فإن هذا الذكاء أخرج الكاتب من دائرة النقد، ووضعه في دائرة النقد الذاتي لنفسه، مما لا يعرضه للنقد الخارجي.

كما أوضح المؤلف أن هناك ربطًا بين الفتن والثورات، ويظهر ذلك واضحًا في العبارة التالية "وأول ما نسمع بهم في مصر، في فتنة عبد الله ابن الزبير"، وأيضًا عرضَ الكاتب لمقولة المؤرخ الفرنسي ويت (wiet) أن هذه الثورات هي فتن وانتفاضات أكثر منها ثورات حقة، وأنها لم تجد من التنظيم والتدعيم ما يكفل لها النجاح، فإن ما يؤخذ على الكاتب أيضًا ربط الفتن بالثورات، فإن المصطلح "فتن" يعتبر إساءة، أو "شتيمة"، ومن ثم فهو تعبير بعيد، كل البعد عن الثورة، فمن الحكمة أن يعرِّف المؤلف المصطلح، فإن الفتن هي اختلاف الناس في الآراء، مما يوقع بينهم القتال.

أما الثورة، فهي تغيير جذري في الأوضاع السياسية والاجتماعية، يقوم به الشعب، في دولة ما، وفي مصطلح آخر، هو القيام على الحاكم والإطاحة به، وقد استخدم الكاتب المنهج الوصفي للوصول إلى أسباب الثورات، من حيث وصف المجتمع الإسلامي بعيدًا كل البعد عن ذكر التطور السياسي والاجتماعي والثقافي للمجتمع، أو عمل إطار لهذا المجتمع، ولم يهتم المؤلف بتحليل وتفكيك هذا المجتمع، ومما أوضحه أن الفصل الرابع تحدث عن الثورات الاقتصادية، ثم تحدث الفصل الخامس عن "الثورات القبطية"، التي ذكر من أسبابها العوامل الاقتصادية، وليست الدينية، فهذا تداخل في تقسيم الكتاب، وكان بإمكان الكاتب أن يذكر "الثورة القبطية" تحت عنوان "الثورة الاقتصادية" إلا إذا كان للثورة القبطية أسباب أخرى دينية، ويظهر أيضًا من خلال الفصل السادس، الثورات مجهولة الأسباب، فإن من أسبابها أو ما اضطر إلى قيامها هي الأسباب الاقتصادية، وكان من الأولى أن توضع هذه الثورات وتندرج تحت "الثورات الاقتصادية"، فإن ذلك يؤخذ على المؤلف، حيث التداخل الواضح بين تقسيمات الكتاب.

ويظهر لنا جليًا أن كتاب "الثورات الشعبية في مصر الإسلامية" مكتوب عليه الطبعة الثانية، فإنه مما قرأت عن هذا الكتاب كانت الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩م، هذه هي سنة صدور الطبعة الأولى، فيما صدرت الطبعة الثانية للهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة، سبتمبر ٢٠٠٢م.

وكان الكاتب خيري شلبي قدم للكتاب، في مقدمته "هذا الكتاب" وكان، آنذاك، رئيس التحرير، فكيف تكون الطبعة الحالية هي الطبعة الثانية وهي بتاريخ ٢٠١٢م ؟! ■